ملخص البحث: الحضارات القديمة في البلاد العربية ومسألة تكوين الهوية التاريخية لأمة العرب

محمد مرَقْطن، جامعة هايدلبيرج، ألمانيا

من المعروف أن البلدان العربية تُشكّل مهد الحضارات في العالم، فهنا بدأ الاستقرار البشري في قرى زراعية في العصر الحجري الحديث ونشأت أول المدن في العالم وظهرت أول الدول، وهنا تمّ اختراع الكتابة كالمسمارية والهيروغليفية، وأخترع الكنعانيون أول ابجدية والتي تفرعت عنها كل أبجديات العالم، وهنا ظهرت أول الأفكار الفلسفية والدينية والقانونية وحسابات الزمن في العالم. العرب هم ورثة وأصحاب هذه الحضارات وهم أقل الناس مساهمة في اكتشافها وفي توثيقها وفي الحفاظ عليها وفي وضعها كجزء أساسي من ثقافتهم الوطنية.

الهدف الأساسي من هذا البحث هو إثارة مسالة كتابة تاريخ الحضارات القديمة في البلدان العربية وموقف المؤرخين العرب منها .

هناك مجموعة بسيطة من المؤرخين العرب ممن قد التزموا بمنهجية علم التاريخ بالمعايير العلمية الحديثة في كتابة تاريخ الحضارات في البلاد العربية، ولا تقوم الجامعات والمؤسسات العربية المختصة بهذا الدور إلا بشكل محدود . ولم يستطع المؤرخون العرب المحدثون تكوين مدرسة ذات منهجية واضحة لكتابة التاريخ العربي القديم أو تاريخ الحضارات في بلادهم، وهناك معضلة حقيقية عند العرب في التعامل مع ماضيهم الحضاري.

يهدف هذا البحث الى عرض منهجية لكتابة الحضارات القديمة في البلاد العربية مع الإعتماد على نماذج من المشرق العربي. ويتكون هذا البحث من عدة محاور . فبعد إلقاء الضوء على مسألة إعادة اكتشاف الحضارات القديمة في البلاد العربية يستعرض البحث الأهداف الأساسية التي ارتبطت بهذه الإكتشافات في القرن التاسع عشر وهي الهدف الاستعماري والهدف الديني–التوراتي مع طرح أمثلة من تاريخ فلسطين القديم.

وتتناول هذه الدراسة مسألة كتابة تاريخ الحضارات القديمة في البلاد العربية في زمن الاستعمار بما في ذلك منهجية علم الآثار ذو التوجهات القومية وعلم الآثار الاستعماري. ويُركّز هذا البحث على كتابة تاريخ هذه الحضارات في زمن الدولة الوطنية أي بعد الإستقلال ودور المؤرخين العرب ومنهجيتهم في كتابة حضاراتهم وكذلك المنهجية الغربية والاستشراقية

في كتابة تاريخ هذه الحضارات وما يسمى بمرحلة الاستعمار الجديد وعلم الآثار الاستعماري الحديث. وتجدر الإشارة إلى أن منهجية كتابة تاريخ الدولة العربية القُطرية قد اصبحت هي الطاغية في كتابة التاريخ العربي وأصبحت هذه الدولة الوطنية تتعامل مع تاريخها القديم على انها امتداد له، وتضع أحيانا حدودا جغرافية للحضارات القديمة في بلادها بما يتفق مع حدودها السياسية الحديثة.

ويقترح هذا البحث منهجية علمية لكتابة تاريخ الحضارات القديمة في البلاد العربية ويستعرض بعض الأفكار الأساسية في منهجية البحث التاريخي، ومنها مسألة فهم الماضي ومنهجية علم التاريخ بشكل عام ومحاولة فهم الحدث التاريخي ومشكلة المعرفة التاريخية التي يجب أن يتسلّح بها الباحث.

ويتقدم هذا البحث بنموذج خاص لدراسات الشرق القديم كما يراه الباحث وهو دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام. حيث يقترح الباحث منهجية ذات معايير علمية تعالج مسألة إمكانية تطوير أساليب علمية تعتمد على المعرفة التاريخية واستخدم المعايير العلمية الحديثة في التعامل مع التاريخ العربي القديم.ويعالج البحث هنا محورين أساسيين بإيجاز، وهما "أصول المصطلحين تاريخ وأسطورة" و "الجذور التاريخية للمصطلح عرب"، وهنا يستعرض هذا البحث عدة مسائل منها الشواهد الواردة في المصادر التاريخية في الشرق القديم لاستخدام المصطلح "عرب" و أين كانت "أرض العرب" ومسألة العرب والأعراب والدلالة اللغوية لكلمة "عرب"، وكما يستعرض الفرضيات المطروحة من قبل العلماء للإجابة على سؤال، من هم العرب في عصور قبل الإسلام؟

والمحور الأخير من هذه الدراسة هو ما يستعرضه البحث بشكل مقتضب فيما يخص مفهوم الوعي التاريخي وتكوين الهوية التاريخية لأمة العرب، ويثير البحث موضوع دور الحضارات القديمة في البلاد العربية في تشكيل الهوية التاريخية والثقافية للشعوب العربية. ويشير البحث بشكل عام إلى أبعاد الوعي التاريخي وكذلك إلى مسألة الإنفصام التاريخي عند العرب ونخبهم بخصوص التعامل مع تاريخهم في عصور ما قبل الإسلام، فمن ناحية هو العصر الجاهلي، ومن ناحية اخرى هناك الصورة الضبابية لهذه الحضارات في ذهنية الانسان العربي. ويبقى السؤال، لماذا لا تتمتع المؤسسة العلمية العربية بالقدرة على خلق وعي تاريخي لدى الانسان العربي؟ وبأن هذه الحضارات تشكل جزءا من هويته الثقافية، وبأن هوية الامة ليس لها معنى بدون هذه الهوية الثقافية.